الفصل الأول

الفلسفة الطبيعية

يبدو أن الإنسان كان يخشى منذ فجر التاريخ أن يواجه نفسه التى بين جنبيه وكان يعلم أن الاقتراب من العالم وإثارة الأسئلة حوله أهون عليه من الدنو من تلك النفس ومن الدخول فى أعماقها بهدف تحليلها والتعرف على ملكاته الإدراكية المختلفة ومستوياتها المتباينة.

ولهذا كان أول سؤال طرحه الإنسان لفهم العلاقة الفكرية بينه وبين الكون هو السؤال التالى:

ما أصل هذا العالم؟ بمعنى ما هى المادة الأولية التى نشأ منها هذا العالم؟ وكيف تفسر التغيرات التى تحدث فى الطبيعة ابتداء من هذه المادة الأولى؟

كان طرح الإنسان لهذا السؤال على هذا النحو بمثابة التجربة الفلسفية الأولى التى مرت بها الإنسانية وهى تخطو خطواتها الأولى نحو التفلسف، فى فجر الفلسفة اليونانية إبان القرن السادس قبل الميلاد وهى تجربة نستطيع أن نطلق عليها اسم «الفلسفة الطبيعية» باعتبار أنها تتناول الطبيعة: الكون أو العالم، وأصلها. وقد قدم هذه التجربة رجال المدرسة التى عرفت فى تاريخ الفلسفة باسم المدرسة الأيونية، وعلى رأسها «طاليس».

فقد ذهب «طاليس» الذى يتفق المؤرخون على النظر إليه على أنه أول فيلسوف قال إن المادة الأولى التى نشأ منها العالم هى العنصر الرطب أو الماء، وذلك لأن الماء أصل كل ما فى الكون، ولأنها عنصر لازم لكل شىء حى، ولجميع التغيرات والاستحالات التى تجرى فى الكون، ولاسيما تلك التى تجرى فى البيئة الرطبة، ورأى «أنكسيمانس» أن المادة الأولى للعالم إنما هى الهواء فهو الجوهر الأول لأنه أكثر قدرة على الانتشار والنفاذ فى الأشياء من الماء، لأنه هو العنصر اللازم للتنفس وللحياة، ولأن كل التغيرات التى تحدث فى الكون إنما تتم عن طريق تكاثف الهواء أو تخلخله وكان للفيلسوف «هيراقليطس» رأى ثالث فقال إن الجوهر الأول الذى نشأ منه الكون إنما هو النار، وهذه النار ليست فقط النار المحسوسة التى هى مصدر الضوء والحرارة والطاقة بجميع أنواعها وأساس كل

التغيـرات التى تحدث فى الكـون ويتحول فيها الماء إلى أبخرة يحملها الهواء والأعاصير ثم ما تلبث أن يتحول إلى ماء جديد يأتى من السـحب وإلى أرض جديدة عندما ينحسـر الماء عنها ويذهب إلى البحار، النار عند «هيراقليطس» ليست تلك النار فقط، بل هى هذه النار المعنوية التى تشتعل فى العقول والنفوس والقلوب وتكون مصدرا لكل طاقات الإنسان وإبداعاته وهى قبس أو نفحة من «اللوغوس» أو «العقل الإلهى». وهى الشعلة التى يحملها الإنسان معه دائما، ويظل قابضا عليها لا تسقط من يده إلا عند الموت.

ولعلنـا نكـون قد لاحظنـا هنا أن «هيراقليطـس» بالرغم من أنه فيلسـوف طبيعى فإن حديثه عن المادة الأولى التى اختارها لتكون أصلا للكون وهى النار ليس بالحديث المادى الصـرف. وهذا القول يصدق على كل الفلاسـفة الطبيعيين. فهـم طبيعيون حقا لكن المادة الأولـى عندهم تتصف بالحياة، فهم أصحـاب المادة – حياة، ولهذا فإن طاليس يتحدث عن الماء أو العنصر الرطب ويقول إن له نفسـا، لكن هذه النفس ليسـت روحية تماما بل لها قوة ساذجة للجذب والحركة شبيهة بقوة المغناطيس. و «أنكسيمانس» فى حديثه عن الهواء يطبق تلك النزعة الحيوية فى النظر إلى المادة فيوحد بين الهواء وبين النفس الكونية الشائعة فى الكون.

وقـد أدى اهتمام هؤلاء الفلاسـفة الطبيعيين بالمادة الأولى التى نشـأ عنها الكون إلى تفسـير ظاهـرة أخرى فى الكون هـى ظاهرة التغير. وقـد أرجعها «طاليـس» إلى الماء و «أنكسـيمانس» إلى الهواء «وهيراقليطس» إلى النار. لكن فيلسوفًا رابعًا من هؤلاء الطبيعيين هو الفيلسوف «أنكسيماندروس» استوقفته هذه الظاهرة بصفة خاصة وقال فى تفسيرها إنها ترجع إلى مبدأ واحد هو «اللامتناهى» أو التغير اللامتناهى وأطلق عليه اسم «الابيرون» وهو شبيه بالدوامة الخالدة التى تجعل الكون كله فى تطور وتغير دائمين. يفنى عالم لينشأ عن فنائه أو موته ميلاد عالم آخر، ويتولد على هذا النحو عدد لا نهاية له من الأكوان، ينفصل بعضها عن بعض ويفسر لنا هذا الانفصال التدريجى ظهور الأحياء ابتداء من الأسماك حتى الإنسـان. وكانت هذه الأقوال إرهاصا أو تمهيدا للقول بنظريات التطور فيما بعد، ويشـتم منها نفحات من «التعادلية» التى تسـيطر على الكـون وتجعله دائما فى حالة من التوازن لا يطغـى فيها جنس من المخلوقات علـى جنس آخر، بل تظلل جميع الأجناس وجميع المخلوقات ضرب من العدالة الكونية الإلهية.

لكن بالرغم من أن «أنكسيماندروس» لم يتوقف عند مادة أولى بعينها، وآثر أن يتحدث عن مبدأ للكون نستطيع أن نصفه بأنه «فكرة» أو بأنه مبدأ عقلى هو الأبيرون، فإن هذا المبدأ عنده هو مبدأ طبيعى وعلة مادية أولا وأخيرا. ولهذا أجمع مؤرخو الفلسفة على أن «أنكسيماندروس» واحد من الفلاسفة الطبيعيين، وإنه لم يشذ عن النظر إلى مادته الأولى على أنها مادة – حية، شأنه فى ذلك شأن زملائه الطبيعيين. وذلك لأنه وصف اللامتناهى بأنه الله الحى، أو الإله الذى تشيع فيه الحياة.

ومن الطبيعى أن يؤدى اهتمام هؤلاء الفلاسفة بظاهرة التغير وتفسيره، والقول بشيوع نظرة حيوية فى الكون بأسره تجعله شبيها بالكائن الحى فى ميلاده وحياته ونموه إلى اهتمام فلاسفة آخرين بظاهرة الثبات والاستقرار فى الكون. هكذا كانت الفلسفة دائما عبر تاريخها وستظل على هذا النحو: اتجاه إلى فكرة معينة يعقبه توجه إلى فكرة أخرى مناقضة أو معارضة لها. وقد اهتم بهذا الثبات الكونى رجال مدرسة أخرى ظهرت فى فجر الفلسفة اليونانية هى المدرسة الإيلية، وعلى رأسهم بارمنيدس وزينون وملیسوس.

وإذا كان مدار بحث الفلاسفة السابقين هو الطبيعة فإن بارمنيدس كان أول الفلاسفة الذين وجهوا عنايتهم نحو البحث فى الوجود.

ما هو الوجود؟ الوجود ليس هو عالم الكثرة الحسية المتغيرة، إذ إن هذا العالم هو بالأحرى ما نستطيع أن نطلق عليه اسم اللاوجود، وأن نسمى معرفتنا له بالمعرفة الظنية، أما الوجود فهو الواحد الثابت اللانهائى، وهو الملاء المحض، والكمال المطلق، وهو أيضا المعرفة اليقينية. ولأول مرة فى تاريخ الفلسفة توضع على مسرح الحياة الفكرية كلمة «الوجود» بدلا من «الطبيعة» وكان ذلك على – بارمنيدس. ووضعت إلى جانبها كلمة أخرى هى كلمة «الفكر»، وقد وحد الفيلسوف بين الفكر والوجود، لا بمعنى أنه أرجع الوجود إلى الفكرة الذهنية أو التصورى الذهنى عنه، كما سنلاحظ بعد هذا فى تطور الفكر الغربى، بل بمعنى إنه لاحظ إننا نلتقى بصفات الثبات والوحدة فى كل من عالم الوجود وعالم الفكر وبهذا الاعتبار فإنهما متماثلان. والوجود عند «بارمنيدس» هو وحده الموجود وهو وحدة اليقين. وكذلك الفكر، أما اللاوجود فهو غير موجود وهو الظن، وليس للإنسان أن يبحث فى تطور الوجود إلى اللاوجود أو «اشتقاق» الكثرة عن الوحدة، وليس له أن يبحث فى عكس ذلك، وليس له أيضا أن يبحث فى الحركة لأنها انتقال من الوجود إلى اللاوجود

أو العكس. وهذا بحث مرفوض بالنسبة إلى «بارمنيدس» إذ لا وجود لديه إلا للوجود. وأيضا فإن الإنسان لا يصح له أن يعتمد إلا على عقله فقط فى معرفته للعالم، وذلك لأن المعرفة التى تأتى عن هذا الطريق معرفة تتصف بالصدق واليقين. أما المعرفة التى تأتيه عن طريق الحواس والإدراك الحسى فتتصف على العكس من ذلك بالتناقض.

وإلى مثل هذا التوجه الذى التقينا به عند الإيليين فى الابتعاد عن الموجودات المادية المحسوسة وفى التوقف عن البحث فى الجوهر المادى الأول كان توجه رجال مدرسة أخرى هى المدرسة «الفيثاغورية» الذين دفعهم اهتمامهم بالرياضيات إلى القول بأن مظاهر التناسب والنظام والانسجام التى نلاحظها فى عالم الرياضيات الزاخر بالأعداد والأشكال الهندسية تشبه ما يسود الكون من تناسب ونظام وانسجام بين أجزائه، وبالإضافة إلى هذا، فإننا إذا وجهنا أنظارنا إلى الأشكال الهندسية سنجد أن الخط هو مجموعة من النقط، وهى وحدات، وبالمثل، فإن الأشياء المادية كذلك مجموعة من الوحدات، والعدد واحد هو الأصل فى جميع الأعداد وفى جميع الأشياء المادية على السواء. لهذا ذهب «الفيثاغوريون» إلى أن التشابه القائم بين المبادئ الرياضية وأهمها الأعداد، وبين سائر الكائنات الموجودة فى الطبيعة يفوق التشابه القائم بين هذه الأخيرة وبين الماء أو الهواء أو النار فالأعداد إذن تصلح لأن تكون مبدأً وأصلاً للأشياء.

ومن ناحية ثانية لاحظ الفيثاغوريون أننا لو أرجعنا جميع الكائنات إلى مادة واحدة على نحو ما أراد الفلاسفة الطبيعيون، فكيف سيتسنى لنا التمييز بين بعضها والبعض الآخر؟ وما الذى سيحدد الصورة الخاصة بكل نوع منها؟ إننا إذا أردنا حقا أن نقف على مصدر الاختلاف والتمايز فيما بين الأشياء المادية فعلينا أن نلتفت إلى الأنغام الموسيقية. فالأنغام تختلف فيما بينها بحسب اختلاف طول الأوتار، والطول يخضع للقياس والعد. إذن فالأعداد لا تمثل فقط مصدر التشابه القائم بين الأشياء المادية ومبدأ وحدتها، بل تمثل كذلك مصدر اختلافها وتمايزها.

العالم كله إذن عدد ونغم، وهكذا كان يقول فيثاغورث فى شعاره المشهور، ومما لاحظه الفيثاغوريون كذلك أن التضاد بين العدد الفردى والعدد الزوجى فى دنيا الأعداد هو الأساس فى سلسلة الأضداد التى تسود العالم بين الواحد والكثير، والمحدود واللامحدود، والمذكر والمؤنث، والثابت والمتحرك، والنور والظلمة، والخير والشر ... إلخ ولكن تظل الوحدة

أو يظل العدد واحد هو الأصل دائما فى كل ثنائية : فالواحدة هى الذرة الأولى. ومنها صدرت الأعداد. ومن الأعداد النقط. ومن النقط الخطوط. ومن الخطوط المسطحات. ومن المسطحات المجسمات ومن المجسمات جميع الأجسام المحسوسة، وعناصرها الأربعة التى هى الماء والنار والهواء والتراب.

وابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد ظهر فى بلاد اليونان اتجاه آخر يعد هو أيضا ابتعاد عن تفسير أصل الكون بالرجوع إلى مبدأ واحد فقط، وقد أسس هذا الاتجاه الفيلسوف «أنبادوقليس» الذى عدل عن القول بمبدأ أو عنصر واحد، وقال بالعناصر الأربعة مجتمعة: النار والهواء والأرض (التراب) والماء. وأرجع التغيرات التى نشاهدها فى الكون إلى قوتين أو مبدأين هما: مبدأ الائتلاف أو الحب ومبدأ الانفصال أو الكراهية، فالحب يجمع ويجعل الكل مندمجًا متماسكا سعيدا. أما الكره فهو مفرق هادم للتماسك. وعندما أراد «أنبادوقليس» أن يعلل سيادة أو غلبة الحب على الكره أو الكراهية أو سيادة العكس نجده يقول إن هذا يحدث فى دورات متعاقبة. فما أن تكتب السيادة لمبدأ الحب فى دورة زمانية معينة يسود فيها الوئام حتى يتدخل مبدأ الكراهية ليطالب بحقوقه فيسود الانفصال .. وهكذا نجد أنفسنا هنا أمام مبدأين عاطفيين أو وجدانيين آثر. «أنبادوقليس» أن يفسر بهما تغيرات الكون بالإضافة إلى قوله بالعناصر الأربعة مجتمعه لا بعنصر واحد فقط. أما عن ظهور الكائنات الحية فى الكون فقد أرجعه «أنمبادوقليس» إلى أثر البيئة والانتخاب الطبيعى والبقاء للأصلح وكل هذا يتم عن طريق التطور الآلى يعتمد على عمليتى الائتلاف والانفصال. وهو فى هذا يعد المبشر بآراء أصحاب نظرية التطور.

والفيلسوف «إنكساغوراس» بالرغم من اهتمامه بالطبيعة كسائر الفلاسفة الذين تحدثنا عنهم حتى الآن فإنه يعد هو الآخر من الذين عدلوا عن تفسير التغيرات التى فى الكون باللجوء إلى عنصر أو مبدأ مادى واحد. إلا إنه لم يقتنع بمبدأ «أنبادوقليس» فى تفسير التحولات التى نشاهدها فى الكون وهما مبدأ الائتلاف ومبدأ الانفصال اللذين قلنا عنهما إنهما مبدأن وجدانيان. وذهب هو على العكس من ذلك إلى وجود قوة عاقلة فى الكون أسماها العقل أو «النوس» وهو يمثل عنده أصفى الأشياء وأدقها، حتى أنه يخترق جميع الموجودات كما لو كان نفسا روحيا منتشرا فيها. وقال عنه إنه القوة التى تثير الحركة فى الكون، وهو الذى يؤلف ويفرق بين العناصر المختلفة. وإن كان هذا كله يتم بطريقة

آليـة محضة، أما عن تكون العناصر وبروز الكيفيات المختلفة التى تحدد أن هذا الشـىء هو برتقالة مثلا وليس تفاحة، فإن مبدأ امتزاج العناصر الأربعة الذى قال به «أنبادوقليس» لا يفسر لنا هذا، بل يفسره مبدأ آخر هو أن الأجسام بالرغم من قابليتها للقسمة فإننا لابد أن نصل فى تقسيمنا لها إلى أجزاء فى غاية الصغر لا يمكن أن تنقسم إلى أجزاء أصغر منها (وهى التى أطلق عليها الفلاسفة الإسلاميون بعد هذا الأجزاء التى لا تتجزأ). وهذه الأجزاء التى لا تتجزأ تشبه البذور ويفسر لنا وجودها فى جسم معين انتماءه إلى هذا النوع أو ذاك. وقد أطلق أرسطو اسم المتشابهات أو «الهوميوميريات» على هذه البذور الصغيرة التى تفسر لنا تسمية الأشياء التى تنتمى إلى نوع معين وعدم قبول تحول هذا النوع إلى نوع آخر.

لكن علينا أن نلاحظ أن الفلاسـفة الطبيعيين اليونان الذين تحدثنا عنهم حتى الآن فى القرنين السـادس والخامس قبل الميلاد بالرغم من توجههم الوحيد نحو الطبيعة أو الكون لبحث الأصل أو الجوهر الذى صدر عنه العالم ولتفسـير التغيرات التى تتم على مسـرحه إلا إنه لا يمكن أن يصدق عليهم أنهم أصحاب فلسـفة مادية صريحة. فالذين بحثوا منهم أصـل الكون فى مادة واحدة كانوا ينظرون إلى هذه المادة على أنها مادة حية هم (طاليس – انكسـيمانس – هيراقليطس). والذين قالوا بالعناصـر الأربعة مجتمعة لجأوا إلى مبادئ وجدانية لتفسـير التغير (أنبادوقليس). ورأينا بعض هؤلاء الفلاسـفة يتحدث عن المبادئ الرياضيـة على أنها أصل الكـون (الفيثاغوريون). والبعض الآخر يوحد بين الفكر والوجود لأن الثانـى به نفس أصل خصائص الأول من ثبات ويقين (الإيليون). ورأينا أنكسـيمانس يتحدث عن الأبيرون أو اللامتناهى، وأنكسـاجوراس يتحدث عن العقل ويصفه بالألوهية وبالحيـاة، وكل هـذه التوجهات عند هؤلاء الفلاسـفة الطبيعييـن لا تجعل حديثهم عن الطبيعة حديثا ماديا صرفا.

أما الفيلسـوف ديمقريطس (وهو من هؤلاء الفلاسـفة الطبيعيين) فهو الذى يصدق عليه فعلا أنه صاحب فلسفة مادية صرفة. فالمادة عنده مكونة ذرات صغيرة، عددها لا محدود، تتحرك من ذاتها حركة تلقائية، ولا وجود لمحرك خارجى لها ولا للكون بأسره. وجميع التغيـرات التى تطرأ على المادة كمية. وعندما يتحدث «ديمقريطس» عن النفس باعتبارها مبـدأ الحيـاة والحركة، فإن النفس عنده تبدو جسـمانية صرفة وهى جزء من المادة. وفى داخل الإنسان تنتشر النفس فى جميع أجزاء بدنه.

وسنرى فيما بعد أثر القول بالذرات فى الفلسفات الحديثة والمعاصرة وبالمثل سنجد أن كل تلك الوقفات التى وقفها الفلاسفة الطبيعيون الأوائل حول الكون والعناصر المكونة له ومحاولتهم تفسير التغيرات التى تتم فيه وتوقفهم حول الرياضيات والوجود واللاوجود والحياة والموت وعالم الفكر وعالم المادة وانقسامات هذه المادة إلى أجزاء تتجزأ إلى مالا نهاية وإلى أجزاء صغيرة لا تنقسم، أقول إننا سنجد فيما بعد أن كل هذه الوقفات على الرغم من أنها قد تبدو للبعض منا على أنها وقفات ساذجة، إلا إنها كانت الأساس فى تطور الفكر الغربى والخميرة التى دخلت فى بناء الحياة الفكرية الغربية كلها، وفى التصورات التى قدمها الفلاسفة الغربيون حول العلاقة بين الإنسان والعالم.

لكن ينبغى أن لا يغيب عن بالنا لحظة واحدة أن وقفات هؤلاء الفلاسفة الطبيعيين السابقين على سقراط كانت كلها وقفات حول الظواهر الكونية لا حول المعانى أو المفاهيم. وبعبارة أخرى كانت وقفاتهم حول الظاهرات أو المشاهدات التى شاهدوها فى الطبيعة أو الكون ولم تكن وقفات حول تصوراتها الذهنية، وإلا ما استحقوا الصفة التى دمغوا بها وهى أنهم فلاسفة طبيعيون. وهى صفة تتفق مع بدايتهم المتواضعة للحياة الفكرية العامة. أما الوقفة مع التصورات فلم تبدأ إلا على يد سقراط.

* * *